

المفهوم والصوت، المدلول والدال، النقش والكتاب. . . اختلاف الروح والجسد، السيد والعبد، الإله والإنسان، المؤلف والممثل. إنه العشية السابقة لأصل اللغات». وكل هذا الصخب يعني أنها لغة حلولية كاملة (لم ينفصل فيها الإله عن الإنسان، ولا تختلف فيها الروح عن الجسد)، لغة آدم قبل أن يتعلم الأسماء كلها، أي لغة آدم قبل أن ينفخ فيه الإله من روحه، أي لغة آدم باعتباره كائناً طبيعياً بلا أصل إلهي. . . إنه غير قادر على الحديث (فوعيه لم يظهر بعد)، ولكنه قادر على الصراخ كالحوانات وإصدار أصوات أخرى مرتبطة بالعمليات الجسدية المختلفة.

وإذا كان التأيقن هو أن يندمج الدال مع المدلول تماماً، بحيث يشير الدال إلى ذاته، فإن الحرفية، على المستوى الظاهر، هي عكس ذلك تماماً. ففي إطار الحرفية، لا تكون للدال أية قيمة في حد ذاته، فهو يضاهي المدلول تماماً، إذ إنه يحاول أن يكون انعكاساً دقيقاً للواقع، ولذا فتركيزنا يكون على المدلول لا الدال، وبالتالي. . . على المعنى الموجود بشكل مباشر في الواقع أو النص، وما علينا إلا التوجه نحوه مباشرة.

ولكننا لو تعمقنا قليلاً ووصلنا إلى مستوى أكثر كموناً لاكتشفنا التشابه التام بين التأيقن والحرفية. فكلاهما يتسم بالواحدية وعدم تعدد المستويات. وثمة محو للثنائيات والمسافات، وسد للثغرات، فالتأيقن هو محاولة الوصول إلى دالٍ ابتلع مدلوله، أما الحرفية فهي محاولة للوصول إلى مدلول ابتلع دالّه. ولا يوجد فارق بين أن يبتلع الدال المدلول أو أن يبتلع المدلول الدال (وفي الإطار الحلولي يمكن أن يقال: «العالم هو الإله»، وهذا لا يختلف كثيراً عن أن يقال: «الإله هو العالم»!). في الحالة الأولى المعنى كامن في الدال وحسب، وفي الثانية المعنى كامن في المدلول وحسب. فكلٌّ من التأيقن والحرفية واحديٌّ، يفصل الدال عن المدلول، ويُلغي المسافة التي تفصل بينهما، إما لحساب الدال أو لحساب المدلول. هذا على عكس المجاز، الذي يؤكد كلاً من الاتصال والانفصال بين الدال والمدلول، كما يؤكد المسافة التي تفصل بينهما، وإمكانية التفاعل بينهما. وإذا كانت لغة المجاز تعبيراً عن